بين الإرادة والمصير

سمر مرتجى

بداية المرحلة

ما زلت أذكر أولى الخطوات التي خطوتها نحو أول مقعد دراسي لي؛ ذلك اليوم الذي طالما انتظرته بشغف؛ كوني الفرد الأول في أسرتي، فتلك الأخيرة أولت لي كماً لا بأس به من العناية والاستعداد للمدرسة. وفي الحقيقة، لم يكن ذلك اليوم كما رسمته في مخيلتي الواسعة. أذكر كيف كانت عمتي -التي كانت تعمل معلمة في المدرسة نفسها- وكأنها تدفع بي دفعاً لترغمني على الدخول إلى غرفة الصف. كان الموقف رهيباً، وكأنها تسحبني إلى المحرقة! الجميع يصرخ ويبكي ... أم تلحق بطفل لها هرب إلى الساحة، وأخرى تسحبه إلى الداخل بالقوة، وثالثة ملأت حقيبتها بالحلوى محاولة إغراءه بالسكوت! يا إلهي! شعرت كأنه سيغمى علي، أهذه المدرسة؟! قصوري التي شيدتها ذهبت أدراج الرياح.

جلست في ركن معزول وأطرافي ترتجف بانتظار المعلمة؛ أبلة كفاح، ما زلت أذكر أدقَّ ملامح وجهها. دخلَت الصف بهدوء، طلبت من الأمهات المغادرة حتى لا يستمر الأطفال في البكاء، بدأت تغني لنا من أغاني الروضة التي حفظناها عن ظهر قلب. رويداً .. رويداً بدأنا نغني معها، انسجمنا ونسينا أمهاتنا، وزّعت الحلوى، وتعرفت علينا فرداً فرداً، ثم اصطحبتنا إلى الساحة وعرّفتنا على المدرسة بأجزائها ومرافقها، كانت ودودة ولطيفة، هي من تبقى لي في ذاكرتي من معلمات المرحلة الابتدائية.

أما في المرحلة الإعدادية، فقد تعلقت كثيراً بعلمة اللغة الإنجليزية، كانت تدعى مس علياء، كان أسلوبها في التدريس شيقاً وسلساً، وكانت ذات شعبية تحسدها عليها زميلاتها المدرسات. لطالما كنت أزورها في مدرستها بين الحين والآخر، حتى بعد انتقالي إلى المرحلة الثانوية، وكانت دائماً ترحب بي بوجه بشوش باسم، هي من طبعت في قلبي حب اللغة الإنجليزية، وبفضلها كانت المادة المفضلة بالنسبة لي في جميع المراحل.

ما بين الإرادة والمصير

لطالما اعتقدت أن الإرادة وحدها هي ما يدفعنا قدما لتحقيق أهدافنا التي اعتمدناها وتبنيناها، والتي كانت تكبر معنا كلما كبرنا، ولكني بت أدرك الآن أنها ليست هي الإرادة وحدها هي ما يفعل ذلك، وإنما هي مشيئة القدر فعلاً من تحدد المصير، هي من توجه خطانا نحو ما نعتقد في فترة ما أنه قدر سيئ، أو أننا لا نعلم حقاً ما هو الأفضل، فلو خيرنا ما بين واقعنا وما بين ما نصر أن نكون، حتماً لاخترنا الواقع. في الحقيقة لم تكن إرادتي أبداً أن أصبح معلمة، بيد أني كنت أحب الإنجليزية، وكنت بشهادة معلماتي وزميلاتي متفوقة بهذه المادة بالذات، إلا أن فكرة أن أكون معلمة لم تكن واردة أصلاً، فكيف أدخل مجال التعليم وزميلاتي اللاتي لطالما تفوقت عليهن، منها من تريد أن تدرس الطب، أو الهندسة، أو القانون، أو ....، لعل الطبعة السائدة في المجتمع هي التي نسجت تلك الأفكار، تلك كانت إرادتي، حصلت على تقدير ممتاز في الثانوية العامة، ودخلت التخصص الذي أحب: اللغة الإنجليزية، ولكن قسم الآداب، اجتهدت وتفوقت، لم يعقني زواجي في السنة الثانية في الجامعة عن تحقيق أي نجاح، ولم تحدني ابنتي التي أنجبتها في نهاية السنة الثالثة من مواصلة الدراسة، أجل لقد كانت فترة صعبة، ولكني اجتزتها بحمد الله وفضله.

إحباط

بعد حصولي على الشهادة كان شأني كشأن أي خريج يبحث

عن شيء يبرد عليه لظى السنين من السهر والتعب، كنت أبحث عن الوظيفة التي كانت رغبتي الأولى والأخيرة، بحثت وبحثت، لم تشفع لي شهاداتي، ولا معدلي المرتفع في الحصول على أي وظيفة تذكر، فقد كان تخرجي مواكباً لوضع اقتصادي صعب نتج إثر انتفاضة الأقصى المباركة، وأدى إلى ركود اقتصادي كاسح، قلّت معه الوظائف وفرص العمل، بل أصبحت وكأنها عملة نادرة، لم يكن أمامي الآن سوى أن ألتحق بالجامعة مرة أخرى، والحصول على مؤهل تربوي يمكنني من التقديم لوظيفة معلم، وهذا ما كان.

كانت مدة الدراسة لهذا الدبلوم سنة واحدة فقط، ولكني شعرت أنها أطول من السنوات الأربع التي قضيتها في دراستي السابقة، فقد زادت مسؤولياتي ما بين زوج وطفلتين، إضافة إلى بيت العائلة الذي كانت أعماله بالكامل ملقاة على عاتقي، باعتباري زوجة الابن البكر، ولك أن تتخيل هذا الصراع الذي دمرني نفسياً وارهقني جسدياً.

أنجزت الدراسة، وكانت فرحتي غامرة، لأنه الآن أصبح بإمكاني التقدم بطلب الحصول على وظيفة معلم، لم يكن المسمى الوظيفي حين ذاك يهمني بقدر الوظيفة نفسها، فقد تعسرت الحياه، وكثرت المتطلبات، وتأزمت الأمور. تقدمت بالطلب فعلاً، واجتهدت من كل قلبي وبكل جوارحي، فقد كان بالنسبة لي، ليس كأي امتحان، ولكنة كان امتحاناً مصيرياً، فهو من سيحدد أن أكون أو لا أكون، أن أتقدم أم أقف كما أنا.

كنت راضية عن نفسي خلال أدائي امتحان الوظيفة، ولكني كنت أشعر بالقلق والتوتر من مجرد فكرة الفشل، فأعداد المتقدمين خيالية، وكنت أفكر دائماً أين أنا من بين هؤلاء.

بصيص أمل

بفضل الله كان اسمي مدرجاً من بين الناجحين، بكيت من الفرحة، ولكني قلت في نفسي لا تستعجلي، فأمامك مقابلة دسمة، استعدي لها جيداً، وهذا ما فعلت.

كانت النتائج تبلغ هاتفياً، ولا أخفيكم أن قلبي كان يقرع بقوة مع كل دقة هاتف، لأني كنت أنتظرها بفارغ الصبر، تماماً كالطفل الذي ينتظر هدية وعدتها به أمه بعيد ميلاده أو بنجاحه، إلى أن جاءت تلك الدقة التي كاد قلبي بها أن يتوقف من الفرحة: ألو، معك رندة بتحكي من دائرة المستخدمين بوكالة الغوث، أحضري غداً شهاداتك الأصلية والأوراق الثبوتية لتوقيع العقد، مع السلامة. الآن .. الآن لي أن أفرح، يا لحظي الأبيض وماضي الأسود، يا لطريقي الخضراء، أمي لا تبكي، فأنا سعيدة، أبي لا تدمع أرجوك، فانا أكاد أطير من الفرحة، شكراً أبي، شكراً أمي بفضلكم أنا هنا.

التجربة الأولى

في صبيحة اليوم التالي توجهت إلى دائرة المستخدمين، ووقعت العقد بحمد الله. استلمت كتاب التعيين وتوجهت إلى المدرسة المعنية، كم كنت مرتبكة ذلك اليوم، فهو اليوم الأول الذي سأقف فيه كمعلمة حقيقية، أنا الآن لست متدربة جامعية، ولست معلمة مساندة، أنا الآن في موقع المسؤولية الحقيقي، ووحدي سأكون مسؤولة عن طلابي وعن صفي، هل أستطيع؟ كل هذه الأفكار وغيرها جالت في فكري وأنا في طريقي إلى المدرسة، الطريق طويل، قلبي يرجف، توكلت على الله، وصلت أخيراً، توجهت إلى غرفة المديرة بتردد، الحمد لله تبدو لطيفة، رحبت بي بلطف، بل وطلبت من الأذنة إعداد فنجان قهوة للمعلمة الجديدة، حقاً لقد بعثت في قلبي الراحة وتبددت مخاوفي، عرفتني على معلمات اللغة الإنجليزية، ارتحت لهن جداً من أول لقاء، لقد رحبن بي وأبدين استعدادهن التام لمساعدتي في حال احتجت أياً منهن، كان جو المدرسة يسوده الحب والتعاون والأخوّة، اعتبرت نفسي محظوظة جداً بالانتماء لمثل هذا الفريق.

تغير جذري

في بداية رحلتي المهنية، لم أكن تلك المعلمة ذات الشخصية التي أنا عليها الآن، فقد كان تعاملي مع الطلاب رسمياً، وكنت أعتمد أسلوب الشرح والتلقين في حدود الحصة، كنت أعتقد أنني لو فتحت مجالاً لحوارات جانبية، فإن ذلك سيوثر سلباً على أداء الطلاب وسلوكهم، ولن أتمكن من ضبط الصف ثانية، فالحزم هو الوسيلة المثلى لضبط الصف بالنسبة لي، أو على الأقل هذا ما كنت أتوقع.

لقد أثبتت لي الحياة أن التجربة والممارسة العملية للمهنة هي أفضل مئات المرات من استراتيجيات مدونة بين ثنايا الكتب، وأفضل من نظريات مجردة بحتة لا تميل إلى التطبيق. خلال السنة الأولى من ممارسة المهنة، حصلت على ما لم أتمكن من الحصول عليه على مدى خمس سنوات دراسية: فكرة توجيه الأقران هي ما أضافت إلي خبرتي الكثير، فهي تلخص لك تجارب الآخرين وخبراتهم أساليبهم وطرائقهم، لكل معلم طريقته الخاصة وأسلوبه المعتمد، لكل معلم شخصية مستقلة وأنت كذلك، توجيه الأقران يتيح لك الفرصة في دمج كل هذه المؤثرات مع شخصيتك وأسلوبك الخاص، لتنتج منك معلماً آخر

ذا شخصية فريدة وأسلوب متميز، لا أذكر أنني فوَّتُّ حصة فراغ واحدة دون الاستئذان من إحدى المعلمات لأكون ضيفتها لهذه الحصة إلا تحت ظرف استثنائي. السنة الأولى على الرغم من صعوبتها، فإنني أشعر أنها صقلت شخصيتي، غيرتها تماماً، اختلف أسلوبي في الشرح والتدريس، تعاملي مع الطلاب اختلف أيضاً، فتلك المعتقدات الصارمة، وتلك القوانين الجامدة ضربت بها عرض الحائط، أصبحت أدرك الآن أنه لا بأس من ممازحة هذه الطالبة ومداعبة تلك، لا بأس أن نلقي فكاهة بين الفينة والأخرى، لا بأس أن أترك الطالب يعبر عن فرحته بعيد قادم، أو بحزنه على شهيد رحل، لا بأس أن نلهو قليلاً ونرسم قليلاً، لن ينهار العالم لو استغرق الدرس حصتين بدل واحدة، المهم هناك قيمة تبنى وعقل ينمّى، ليس المهم أن تنتهج الكتاب حرفياً، فالكتاب موجود، ولكن ما وراء الكتاب هو الأهم بالنسبة لي، لم أستغرب تعقيب موجهة اللغة الإنجليزية بعدما انتهت من حضور حصة للصف الثاني الابتدائي، سمر: لقد تغيرت كثيراً، نعم موجهتي لقد تغيرت، وكيف لا وأنا بين معلمات قديرات ومديرة لم تدخر جهداً لتعليمي حتى باتت تفخر بي عضواً من أعضاء الهيئة الدراسية، لم أترك فرصة سانحة للالتحاق بدورة تدريبة إلا وقد صممت على الالتحاق بها، فهي بدروها تضفي إلى الكثير من الخبرة. أحببت الطلاب وهم بدورهم أحبوني، زادهم هذا الحب تعلقاً بالمادة، فالطفل يشعر بحب الناس له ويتصرف على هذا الأساس، أحببت مهنتي التي كنت أقول دائماً أنها آخر أمنياتي، الآن هي من أولوياتي، فلا أكذب ولا أنافق عندما أقول لا أحب الإجازة، نعم أنا فعلاً أكره فترة الإجازات. وصدقاً أقول إنني أشعر بالاكتئاب عند قرب موعد الامتحانات النهائية، لأنها عتبة الدخول إلى إجازة صيفية طويلة نوعاً ما.

اعتبرت نفسي محظوظة جداً عندما هاتفتني الأستاذة علا بدوي سائلة إذ أن بإمكاني الالتحاق بدورة ينسقها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي بعنوان «التعلم عبر المشروع». في البداية، كان العنوان مبهماً بالنسبة لي: أي مشروع هذا؟ كيف سيكون؟ لكني وافقت وأنا جد سعيدة، فأي دروة تدريبة باستطاعتي الاستفادة منها، أما عن الموضوع فيمكنني فهمه لاحقاً. كان اللقاء الأول مع الباحث مالك الريماوي مدير مسار اللغات والعلوم الاجتماعية في المركز، وكان رائعاً وممتعاً، أزاح عني الغموض، وأضفى فكرة واضحة للتعلم عبر المشروع.

ما زلنا في الإجازة، وما زلت انتظر استكمال الدورة حتى أتمكن من تطبيقها مع الطلاب، لست متأكدة من النتائج، ولكنها على الأرجح ستكون إيجابية، أو هذا ما أتمنى.

مدرسة الزيتون المشتركة (ب)

جانب من مشاركة المعلمة سمر مرتجى في لقاءات التكون المهني في غزة.